

جولة أثرية في بعض البلاد الشامية

بقلم: أحمد وصفي زكريا

شاء لي حسن الحظ أن أهبط يوماً دار صديقي المصور الفنان النابغ الأستاذ شعبان زكي بالمطراوية، فلم تكد عيني تقع من الجدر على ما زينها به صاحبها من آيات الفن الرائعة حتى أحسست في أعماق النفس غبطة ونشوة، وكأنما سمعت حينئذ صوتاً يججلج في أغوار الضمير يصيح بي: مصر العزيزة كنانة الله في أرضه!! ومبعث هذا الصوت وذلك الإحساس هو أني رأيت بلادي داخل الأطر وقد ألبسها الفنان زخرفاً وزينة لم يكن لي بهما عهد من قبل.. قال لي الأستاذ: ذلك مبدئي وهو أن يأخذ الفنان بأيدي الناس حتى يضع أصابعهم على مواضع الجمال من بلادهم فإن وفق كانت لنا وطنية تشتعل في الصدور، فأصل الوطنية حب الوطن، وباعث حب الوطن إحساس بجماله. قلت: والله ما أجمل أن يكون هذا وسيلة الفنون جميعاً، تصويراً وكتابةً وشعراً وموسيقى.

ومنذ ذلك اليوم رسخ في نفسي مذهب مصورنا الفنان وتمنيت أن يكون لنا بين الكتاب والشعراء من يضيعون لنا بلادنا تحت أبصارنا وأسماعنا في صور تستهوي الأبواب فتدفع الأفئدة إلى الفتنة والهيام ثم إلى العبادة والتفاني.

ذكرت ذلك كله عندما أخذت أتصفح هذا الكتاب القيم الجليل،

الذي نقدمه الآن إلى القراء، فهو كما ترى من عنوانه جولة في بعض البلاد الشامية، وصفت وصفاً دقيقاً بارعاً، فلا تقرأ من الكتاب جزءاً إلا وقد ارتسمت في ذهنك له صورة قوية رائعة كأنما جاءتك من رؤية العين، بل إن الكثرة الغالية من الأعين لتمر مر الكرام على أغلب ما تقع عليه مما لا يفوت الأستاذ المؤلف منه شيء، فما أخرجنا في الحق إلى مطالعة بلادنا بأقلام الكاتبتين، إذ الحقيقة المرة هي ما يصفها المؤلف في مقدمة الكتاب بقوله: "فقد كنت وأنا أتوغل في هذه الأبحاث أرى بكثير من الأسف أن جل متقينا ومفكرينا لا يعرفون من شؤون مساقط رؤوسهم وجغرافيتها وتاريخ القديمين والحديثين ولا من بقاعها ومصانعها الأثرية ومفاخرها الثليدة ومدافن رجالاتها البارزة وتراجمهم قدراً كافياً.

وقد رجع المؤلف فضلاً عن المشاهدة إلى عشرات من أوثق المصادر، وإن نظرة عجلت لتكفي للدلالة على ذلك المجهود الجبار الذي أنفقه الأستاذ المؤلف في هذا السفر الجليل: "ومعظم هذه الأوصاف مما رأيته بعيني وتحققته بنفسي أو بالواسطة الوثيقة على عسرة نواله، أو مما عثرت عليه فيما ظفرت به من الكتب الجغرافية والتاريخية والرحلات القديمة والحديثة العربية والتركية والإفرنجية على تفرقه في تضاعيف السطور. فجاء الكتاب وافيأ على ما أظن ببعض حاجته من يقدر هذه الأبحاث قدرها ويعرف مبلغ التعب والنشب اللذين تتطلبهما.

الحق الذي لا ريب فيه أنه كتاب كانت تفتقر إليه المكتبة العربية افتقاراً شديداً، وإننا لننتهز هذه الفرصة لنقدم مخلصين إلى المؤلف بكل إعجاب وتقدير.

ويقع الكتاب في نيف وأربعمائة صفحة من القطع المتوسط وهو فوق ذلك كله أنيق طبعاً وورقاً وذوقاً.

زكي نجيب محمود

obeikandi.com